تحليل العواطف المركبة

الكره والحسد والاحتقار والانتقام والاعجاب والاحترام والقلق

النفس الانسانية فيه كثير الالتواء متشعب المسالك يلجهُ من يلجهُ فلا يستبين صعوبة السير فيهِ الاّ اذا أوغل في منعطفاته ومعمّياته . وقلّما يدرك انهُ في سبيل ليست كالسبل العادية ؛ وانهُ اذا شاء ان تكون نهاية لسيره عليهِ ان يسير مرهف الحس شديد اليقظة. وهذا الوصف لا يصدق صدقه على الناحية العاطفية من نواحي حياتنا العقلية . فنحن اذ نعالج دراسة العواطف درساً مجملاً نجد السبيل معبدة مطروقة والسير فيها ميسّراً غير عسير ، لان علماء النفس قد انتهوا في دراسة العواطف الانسانية الاساسية الى شيوع يشبه الاجماع فاتضحت العوامل التي تثير هذه العواطف وتقعدها والمظاهر النفسية والفزيولوجية التي تصحبها واضحة محدّدة . ولكن الى هنا ينتهي الوضوح ويتبدل اليسر عسراً . فاذا انتهينا الى دراسة العواطف المركبة المشتقة من هذه العواطف الاساسية فهناك الحدس والتخمين وهناك الاختلاف في الرأي وهناك ما لا يكاد يتعدّى الدراسة الذاتية . والقليلون الذين تصدّوا لدراسة هذه العواطف مثل شاند ومكدوغل وودورث لا ينكرون مقدار الصعوبة في هذه الدراسة

ووجه الصعوبة هو ان هذه العواطف المشتقة تتألف من العواطف الاساسية على نحو ما يتألف المركب الكيماوي من عناصره الاولية . والصعوبة في رد العاطفة المركبة الى عناصرها الاولية هي كالصعوبة في رد المركب الكيماوي الى عناصره التي يتركب منها

ثم ان الطبيعة لا تعطي الفرد هذه العواطف الاساسية جاهزة ناضجة شأنها في معظم ما تغرسهُ فيهِ من عواطف اساسية . والحقيقة ان نضوج هذه العواطف المركبة يتوقف الى حد كبير على طرائق التلقين المختلفة التي يخضع لها المرء طوعاً او قسراً ، والتي لاشك تساعدهُ في تثبيت هذه العواطف وتمكينها من النفوس . يضاف الى هذا ان العواطف الاساسية الاولية تفقد معظم خواصها متى دخلت في تركيب العاطفة المركبة ، على نحو ما تشاهده في المركبات الكيماوية حينما تتألف عناصرها الاساسية وتتحد . زد على ذلك كلهِ ان العواطف الاساسية كعاطفة الغضب والخوف والحب (بالمعنى الجنسي) والاستعلاء والتصاغر هي عواطف قوية بارزة . وليس كالبروز والقوة في الصفات النفسانية شيئان يسهلان دراستها . على حين ان العواطف المركبة ليس لها مثل ذينك البروز والقوة . واحدنا قد يقرأ قصة الحياة من الفها الى يائها ولا يتاح لبعض هذه العواطف فيهِ ان تنهض من رقدتها ، فيحيا ويموت وكأن لم يكن لهذه العواطف اثر في حياتهِ . ذلك ان مثيرات هذه العواطف هي الاخرى معقدة متعددة

الجوانب ، فلا يسهل اجتماعها — والحالة هذه — في وقت واحد لتثير عاطفة بعينها من هذه العواطف المركبة . ثم لا ننسى ان الفرق في الكثرة بين العواطف الاولية والعواطف المركبة هو نسبيًّا كالفرق بين العناصر الاساسية في الطبيعة ومركباتها ؛ مما يجعل الاحاطة احاطة تامة بهذه العواطف جميعاً من الامور العسيرة

ولكن على الرغم من هذا كله ففي طبيعة العواطف المركبة ذاتها ما يُساعد على تمييزها من العواطف البسيطة ودراستها . فللتمييز بين العواطف الاساسية والعواطف المركبة على الدارس ان يُلاحظ هل العاطفة المراد درسها ظاهرة بوضوح وجلاء في احد الحيوانات العليا غير الانسان فاذا رآها كذلك عندها يُرجح ان هذه العاطفة عاطفة اساسية ، لان الذي عليه جمهور الباحثين النفسيين ان الحيوان لا يشارك الانسان في العواطف المركبة . وعليه فالعاطفة التي تشاهد في الانسان والحيوان هي عاطفة اساسية . والعاطفة التي يستأثر بها الانسان هي عاطفة مركبة . واذا فحصت احدى هذه العواطف ورأيت انها قد تظهر في بعض الناس بمظهر الشذوذ المستديم فالراجح ان هذه العاطفة عاطفة اساسية غير مركبة . فالعاطفة المركبة هي في الحقيقة كالجرم المثقل يصعب تحريكها عن مركز ثقلها او زحزحتها عن نقطة ارتكازها لتظهر بمظهر الشذوذ والانحراف . فعاطفة الخوف او عاطفة الغضب او عاطفة الاستعلاء او غيرها من العواطف الاساسية قد تظهر بمظهر الشذوذ الشديد في بعض الناس ، ولكن يندر جدًّا ان تظهر عاطفة الاحترام او الكره او الانتقام من العواطف المركبة بمظهر الشذوذ . نعم ان هذه العواطف قد تظهر بمظهر العنف او المبالغة ، ولكن العنف والمبالغة هما غير الشذوذ

وحينما يتجه الباحث النفسي الى تحليل هذه العواطف المركبة بعد ان يستيقن من انها مركبة غير بسيطة يجب ان يدرس ويلاحظ بدقة جميع التغيرات والمظاهر التي يلحظها في موضوع درسه حينما تثار احدى هذه العواطف . والحقيقة ان لكل من هذه العواطف المركبة مظاهر خاصة تساعد على تمييزها . وليس ادلُّ على ذلك من ان معظم الممثلين الناجحين يستطيعون ان يحْيوا على المسرح بحركاتهم وسكناتهم جميع طيوف العواطف المركبة كالحقد والرياء والمكر والكبرياء والاعجاب والقلق وما الى هذه من عواطف مركبة معقّدة

كذلك يُساعد على تبيُّن هذه العواطف دراستها في درجة عليا من الاستفزاز . ففي استثارة هذه العواطف والالحاح عليها ما يكاد يحلها الى عناصرها الاولية ، مما يساعد على دراستها وتمييز صفاتها . وبضعة امثلة من هذه العواطف تؤخذ وتحلل تكفي لايضاح الطريق التي يسير عليها من يود الالمام بطبيعة هذه العواطف والكشف عن عناصرها

من العواطف المركبة عاطفة الكره وهي مكوّنة من عاطفتين اساسيتين هما عاطفة الغضب وعاطفة الخوف . ولسنا نرى ان عاطفة الاشمئزاز — كما يريد مكدوغل — داخلة في تكوين

هذه العاطفة ايضاً. هذا على تقدير ان عاطفة الاشمئزاز هي عاطفة بسيطة . ولكن الذي نرجحهُ ان عاطفة الاشمئزاز هي عاطفة مركبة . فهي من العواطف الانسانية المحضة. والحيوان في الراجح لا نصيب لهُ منها . والعواطف المركبة هي — كما مرَّ معنا — العواطف التي يستأثر بها الانسان دون الحيوان. وعلى كل ليس ثمة ضرورة لفرض وجود هذه العاطفة وحسبانها عنصراً اساسيًّا من عناصر العاطفة المركبة لان عاطفتي الخوف والغضب وحدهما تكفيان لتفسير هذه العاطفة . خذ موضوعاً تتوافر فيهِ مثيرات هاتين العاطفتين فقط فتجد انهُ دائماً يثير عاطفة الكره. شخصٌ يثير مخاوفك لقدرته على الايذاء ويثير غضبك لتوجهه نحوك بهذا الايذاء يستطيع ان يبعث فيك عاطفة الكره دون أن يكون فيهِ ما يبعث على الاشمئزاز . ولا نعتقد ان امثال موسوليني ونابليون ومصطفى كمال يثيرون في خصومهم عواطف الاشمئزاز ، مع ان هؤلاء الخصوم يتظاهرون بهذه العواطف . والرجل العاقي الذي يتسلط على جماعة من البشر يثير كرههم؛ لانهُ يغضبهم بتوجههِ بالاذى اليهم ولانهُ يخيفهم لمنعه واستحالة الانتصاف منهُ عليهم . فالمكروه اذاً يجب ان تتوافر فيهِ مثيرات هاتين العاطفتين: فالمخيف وحده لا يثير فينا عاطفة الكره . كمنظر الاسد مثلاً . وما يثير عاطفة الغضب وحدها لا يثير فينا عاطفة الكره ايضاً — كالطفل الذي يكسر آنية عزيزة عليك . ولا يثير الطفل فيك عاطفة الخوف لانهُ عاجز عن ايذائك اذا رُمت ان تقتصَّ منهُ

والحسد عاطفة اخرى مركبة . وبينها وبين عاطفة الكره نسب شديد، لان عنصراً من عناصر عاطفة الكره داخل في تركيبها . فهي مكونة من عاطفتين اساسيتين : عاطفة التصاغر وعاطفة الغضب أما عاطفة التصاغر فهي هذا الشعور الذي يستولي علينا ازاء ما يشعرنا بضعفنا وتخلفنا بيد ان ما يثير عاطفة التصاغر لا يكفي لتثير عاطفة الحسد اذا لم يُثر عاطفة الغضب . ونحن لا نشعر بشيء من الحسد للجار او الملاكم القوي الا اذا كانت قوته مبعث خطر او مصدر حرمان لنا . وقد لا يتوجه المحسود بالاذى مباشرة الى الحاسدين ، ولكنهُ مع ذلك يظل يثير عاطفة الحسد في الصدور. ومن هنا كان الناجحون في الحياة هدفاً لحسد الحاسدين سواء اكان هؤلاء الحاسدون مزاحمين لهم او غير مزاحمين . ولعل في قرارة كل نفس شعوراً بأن الناجح ايًّا كان سببهُ في النجاح ومهما كان متجههُ في الحياة يجور على نصيب غيره ويسلبه فرصة من فرص النجاح ولا تستطيع بغير هذا ان تعلل شيوع التحاسد بين الناس الى هذا الحد

ويقرب من العاطفتين السابقتين في طبيعتهما العدائية عاطفتان اخريان هما عاطفة الاحتقار وعاطفة الانتقام . اما عاطفة الاحتقار فيرجح انها مركبة من عاطفة الاستعلاء الاساسية ومن عاطفة الكره المركبة . فالمحتقر لا يكون محتقراً اذا كان يثير عاطفة الكره ولا يثير عاطفة الاستعلاء وعاطفة الاستعلاء يثيرها شعورك بالتفوق في ناحية من النواحي على من تتعالى عليه . ويجدر ان ننبه هنا الى ان من مظاهر الاحتقار ما هو حقيقي ومنها ما هو متكلف

مصطنع . وهذا النوع المصطنع هو الذي يحفزه — عدا عاطفة الكره — عاطفة التصاغر. وهو في هذا لا يختلف بطبيعته عن الحسد الذي يتكوّن من عاطفتي الكره والتصاغر. ولعلّ عاطفة الكبرياء هي في معظم الاحوال وجه من اوجه الاحتقار المصطنع الذي لا يثيره في الحقيقة احساس صحيح بالتسامي والاستعلاء بل احساس خفي بالتصاغر مضافاً الى عاطفة الكره

اما عاطفة الانتقام فالغضب والاستعلاء عنصراها الاكبران . فالغضب وحده لا يكفي ليثير عاطفة الانتقام . والامور التي تستفز غضبنا ، وهي مع ذلك ابعد ما تكون عن اثارة الانتقام ، لا تعد ولا تحصى . كذلك واضح ان ما يثير عاطفة الاستعلاء وحدها لا يثير عاطفة الانتقام . فانت لا تفكر في اذى زيد لمجرد انك اقوى منه . ولكنك تفكر في اذاه حينما يشتد غضبك من عمل من اعماله. ولكننا نحب ان نشير هنا الى ان المرء قد يصفح ويتجاوز عن الانتقام حينما يثبت للملأ انهُ قادر على ايقاع الاذى فيمن اثار فيه عاطفة الانتقام. والعفو عند المقدرة هو من هذا القبيل . وقد لا يعفو القادر على الانتقام إلا اذا ايقن ان عفوه سوف لا يحمل منه على محمل الضعف والعجز عن اثبات شخصيته وتقريرها

وفي العواطف المركبة ايضاً عاطفة الاعجاب. وهي تختلف عن العواطف السالفة في طبيعتها الموجبة غير العدائية . وهي من اسمى العواطف الانسانية، ولا تنمو وتترعرع إلاّ في النفوس الرقيقة دقيقة الحس . والناس يتفاضلون تفاضلاً كبيراً في نصيبهم منها لهذا السبب. وتتركب هذه العاطفة من عاطفتين اساسيتين هما عاطفة التصاغر وعاطفة الاستغراب. فعاطفة الاستغراب تظهر بمظهر الانتباه الكثير للشيء المستغرب وادامة التفكير فيه . وهذا عنصر واضح في عاطفة الاعجاب . فكل ما يثير اعجابنا يقسرنا على الاسترسال في النظر اليه والتفكير فيه . ولو خفّ استغراب الناس لتافيون وأضحى عندهم في قدر الرجل العادي لما كان لنا هذا السيل من التراجم الذي لا ينقطع لحياة هذا العبقري . والناس لا يتفكرون يعجبون بكل شخصية او حادثة من حوادث التاريخ الى ان تفهم فهماً جيداً. وحينذاك يتلاشى الاعجاب والاستغراب على انه لا يكفي الشيء ان يثير عاطفة الاستغراب وحدها لكي يثير فينا المعجب عاطفة الاعجاب. بل يجب ان يتصف بصفة بارزة مفقودة فينا او نصيبنا منها نصيب ضئيل تقسرنا على الخضوع والتصاغر امامها . وليس من الضروري ان يكون الشيء الذي يثير فينا عاطفة الخضوع انساناً فقد يكون باخرة ضخمة تمخر عباب اليم او طيارة تمر في الفضاء ، او جبلاً اشم او وجهاً وسيماً او صورة بلغت الغاية في الاتقان . وقد يتجه الاعجاب اول الامر الى موجد هذا الشيء الذي اثار حاسة الاعجاب . واذا لم يكن ثمة شخص ظاهر معروف ترجع اليه الاشياء التي نعجب بها فاننا نرجع مصادر اعجابنا الى قوة خفية غير منظورة . وهذا لا ريب عامل كبير في نشوء الاديان القديمة وفي نشوء فكرة خالق عظيم يهيمن على جميع الكائنات. وسوف تظل للدين

سلطته وجبروته ما دام في الكون اسرار والغاز يحار العقل البشري فيها ويعجز عن النفوذ اليها

ويجب ان نذكر ان عامل الخضوع امرٌ ضروري في توليد هذه العاطفة. وهذا يفسر لنا كيف ان المغرورين هم اقل الناس اعجاباً بالاشياء المعجبة. وقد تتصف بعض مثيرات الاعجاب بصفة اخرى تثير عاطفة الخوف. فتظهر عاطفة الاعجاب ملونة بلون يبعث على الخوف والرهبة ولفظة « روعة » هي من هذا القبيل وهي خير ما يقابل كلمة awe التي تدل عليها بالانكليزية

ويلحق بعاطفة الاعجاب عاطفة الاحترام إلاّ انها اكثر تعقيداً وأمت صلة منها بالانسان ولا يثيرها في انسان إلاّ انسان آخر. في حين ان عاطفة الاعجاب قد يثيرها حيوان او جماد. والمرء، لكي يثير فينا عاطفة الاحترام، يجب ان يتصف بما يثير الخوف والرهبة فينا علاوة على ما يثير الاعجاب. وبعبارة اخرى يجب ان يتصف بما يثير عاطفة التصاغر وعاطفة الاستغراب ثم عاطفة الخوف، ولكن على شرط ان يستغلّ القوة التي تبعث الخوف فينا للنفع لا الاضرار. فالقائد الحازم الباسل لا شكّ يبعث في صدور جنوده عاطفة الاحترام اذا كان يفادي بنفسه في المعركة ويباضل دونهم لنضال المستميت مهما كانت يده ثقيلة عليهم ومهما اخذهم بالشدة والعنف. ومثل القائد في ابتعاث عاطفة الاحترام فيمن يحيط به كل رئيس مقتدر يسير مقدرته في سبيل النفع لا الايذاء. وقد يخيل للمرء ان ثمة اشخاصاً يبتعثون فينا عاطفة الاحترام دون ان يكون لديهم ما يبعث على الخوف. ولكننا في الحقيقة لو دققنا في ملخص عواطفنا ازاء مثل هؤلاء الاشخاص لوجدنا انها عواطف اعجاب اكثر منها عواطف احترام

والقلق عاطفة اخرى مركبة يثيرها في الغالب عاملان عامل الحب للشيء او الامل في نيله ثم الخوف عليه والخشية من فقده او استحالة الحصول عليه. وعلى قدر ما تكون النسبة بين هذين العاملين يكون القلق قويًّا او ضعيفاً. فأنت قد تأمل نيل شيء ولكنك كبير الشك في نيله في هذه الحالة يكون القلق والحيرة على اشدهما. او انك تنال شيئاً او تأكد من نيله، ولكنك لا تستطيع الامتناع عن التفكير في امكان الحرمان منهُ. في هذه الحالة يستولي عليك احساس بالقلق. ولكنه احساس اقرب الى الاستمتاع واستشعار السعادة منهُ الى القلق المحض

وفي ختام هذا البحث لا يسعنا إلاّ الاشارة الى ان اسلوبنا في دراسة هذه العواطف وتحليلها كان في معظم الاحوال اسلوب الاستبطان والدراسة الذاتية. ولذا فنحن لا نستغرب ان يكون القارىء على خلاف رأينا في تحليل بعض هذه العواطف. لان دور البت بشأن طبيعة هذه العواطف المركبة لم يجيء بعد. وكل ما نأمله هو ان يستثير هذا البحث في نفوس القراء الرغبة في الوقوف من هذه العواطف الانسانية موقف النقد والتحليل. ففي ذلك، فوق ما فيه من متعة ولذة، فهم صحيح للطبيعة البشرية وهو ما نحاول جميع العلوم «الانسانية» ان تحققهُ او تدنو منهُ على الاقل

شرق الاردن اديب عباسي